صنع الرجلان بابنها: قالت: ما للشيطان على ابني من سبيل، وإن لابني لشأناً. ثم قالت لحليمة دعيه وانطلقي راشدة.

وقد وقعت «الشيماء» في سبي هوازن يوم حنين، فقالت: أنا أخت صاحبكم، فلما عرضوها عليه قالت: يا رسول الله! أنا أختك، قال: «وما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه فأسلمت وقيل: إن هذا اللقاء وقع بعد خمسين عاماً من مفارقته لها بعد أن انتهى رضاعه، ولا يعرف تاريخ وفاتها. رحمها الله تعالى.

السيدة الصَّعبة بنت الحضرمي رضي الله عنها

أخرج ابن الأثير في «أسد الغابة»، قال:

[قال «الجعابي»: اسم الحضرمي «عبد الله بن حماد بن ربيعة»، وهي أخت «العلاء بن الحضرمي»، أم «طلحة بن عبيد الله التميمي».

ذكرها «جعفر» من حديث «عبد الله بن رافع»، عن أبيه، قال: خرجت «الصعبة بنت الحضرمي»، قال: فسمعتها تقول لابنها «طلحة بن عبيد الله»: إن «عثمان قد اشتد حصرُه فلو كَلَّمْتَ فيه حتى يردَّ عنه.

وروى «البلاذري» عن «الواقدي»: أنها توفيت على عهد رسول الله ﷺ، قال: وأخبرني بعض «آل طلحة» أنها أسلمت. وكان هذا أشبه من قول من قال: إنها بقيت إلى أن قتل «عثمان» رضي الله عنه، أخرجها أبو موسى][1].

رحمها الله تعالى.

(1) أسد الغابة (5/ 326).

السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها

هل أتاك حديث أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ وللدين الحنيف؟ إنه «حيي ابن أخطب» سيد بني النضير، وقد تزوج «حيي» «بَرَّة بنت سموأل القرظية» أخت «رفاعة» وكانت «صفية» ثمرة لهذا الزواج، وقد قتل «حيي» يوم خيبر، فهل عرفت نسبها؟ أخرج ابن زبالة في المنتخب: [أن اسم «صفية» هو «حبيبة»، ولكنها سميت «صفية» لأنها كانت صفية للنبي ﷺ يوم خيبر][1] وذكر الحافظ في فتح الباري أنها كانت تكنى بأم يحيى[2].

تزويجها من النبي ﷺ: وأخرج «أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب، عن أبي عبيدة: [كانت «صفية بنت حيي» عند «سلام بن مشكم» وكان شاعراً، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، وهو شاعر، فقتل يوم خيبر، وتزوجها النبي ﷺ في سنة سبع من الهجرة][3]، فأصبحت أماً للمؤمنين.

وذكر الصالحي الدمشقي في مصنَّفه «أزواج النبي ﷺ»: [قال الحافظ: ولصفية بنت حيي مائة سبي ومائة ملك، ثم صيَّرها الله أمةً لنبيه ﷺ، وكان أبوها سيد بني النضير، فقتل مع بني قريظة][4].

ولم تكن تبلغ سبع عشرة سنة من عمرها، حين بنى بها رسول الله ﷺ، وروى وحشي بن حرب أن رسول الله ﷺ لما أفاء الله عليه «صفية» قال لأصحابه: (ما تقولون في هذه الجارية؟).

قالوا: نقول: إنك أولى الناس بها وأحقُّهم، قال: (فإني أعتقتها واستنكحتها، وجعلت عتقها مهرها) فقال رجل: الوليمة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: (الوليمة أول يوم حق، والثانية معروف، والثالثة

---

(1) المنتخب (58).
(2) انظر شرح الحديث (2035).
(3) الاستيعاب: (4/ 1871).
(4) أزواج النبي ﷺ (214)

فخر) أخرجه الهيثمي [1] في مجمع الزوائد، وأخرجه الطبراني بإسناد جيد.

وجاء في صحيح البخاري حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغَلَس، فركب نبي الله ﷺ وركب «أبو طلحة»، وأنا رديف «أبي طلحة» فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: (الله أكبر، خربت خيبر: إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين)، قالها ثلاثاً، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد - قال عبد العزيز: وقال بعض أصحابنا: والخميس، يعني: الجيش - قال: فأصبناها عَنْوَةً، فجُمِعَ السبيُ، فجاء «دِحْيَةُ» فقال: يا نبي الله! أعطني جارية من السبي. قال: (اذهب فخذ جارية)، فأخذ «صفية بنت حيي»، فجاء رجل إلى النبي ﷺ: فقال: يا نبي الله! أعطيت دحية «صفية بنت حيي»، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: (ادعوه بها)، فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ، قال: (خذ جارية من السبي غيرها)، قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة! ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له «أم سَلَيْم» فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال: (من كان عنده شيء فليجئ به) وبسط نِطَعاً، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسِبُه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حَيْساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ [2].

إكرامه لها ﷺ وخوفه عليها: وأخرج البخاري في صحيحه: «حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب، عن عمرو، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ

---

(1) مجمع الزوائد (9/ 251).

(2) البخاري رقم (364).

قال لأبي طلحة: (التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خيبر) فخرج بي «أبو طلحة» مردفي، وأنا غلام أرهقه الحلم، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيراً يقول: (اللهم! إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدَّيْن، وغلبة الرجال)، ثم قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال «صفية بنت حيي بن أخطب» وقد قتل زوجها، وكانت عروساً فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الصهباء حَلَّت فبنى بها، ثم صنع حيساً في نِطَع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: (آذِنْ مَنْ حولك) فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على «صفية» ثم خرجنا إلى المدينة، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوِّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته فتضع «صفية» رجلها على ركبته حتى تركب، فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أُحُدٍ، فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)، ثم نظر إلى المدينة، فقال: (اللهم! إني أُحَرِّم ما بين لابَتَيْها بمثل ما حَرَّم «إبراهيم» مكة، اللهم! بارك لهم في مُدِّهم وصاعهم)[1].

وأخرج البخاري أيضاً [عن علي، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا يحيى ابن أبي إسحاق، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ «صفية» مردفَها على راحلته، فلما كانوا ببعض الطريق عثرت الناقة، فصُرِعَ النبي ﷺ والمرأة، وإن «أبا طلحة» - قال: أحسِبُ قال - اقتحم عن بعيره فأتى رسول الله ﷺ: فقال: يا نبي الله! جعلني الله فداءك، هل أصابك من شيء؟ قال: (لا، ولكن عليك بالمرأة)، فألقى «أبو طلحة» ثوبه على وجهه، فقصد قصدها، فألقى ثوبه عليها، فقامت المرأة، فشد لهما على راحلتهما، فركبا، فساروا حتى إذا كانوا بظهر المدينة، أو قال: أشرفوا على المدينة، قال النبي ﷺ: (آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»، فلم يزل يقولها، حتى دخل المدينة)][2].

---

(1) البخاري (2736). (2) البخاري (2920).

وعند الإمام مسلم: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، قال: صارت «صفية» لدحية في مقسمه، وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ، قال: ويقولون: ما رأينا في السبي مثلها، قال: فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد، ثم دفعها إلى أمي، فقال: «أصلحيها»، قال: ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر، حتى إذا جعلها في ظهره نزل، ثم ضرب عليها القبة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: (من كان عنده فضل زاد فليأتنا به)، قال: فجعل الرجل يجيء بفضل التمر وفضل السويق، حتى جعلوا من ذلك سواداً حيساً، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس، ويشربون من حياضٍ إلى جنبهم من ماء السماء، قال: فقال أنس: فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ عليها، قال: فانطلقنا، حتى إذا رأينا جُدُرَ المدينة هَشِشْنا إليها، فرفعنا مَطِيَّنَّا - أي: أسرعنا - ورفع رسول الله ﷺ مطيتَّه، قال: وصفية خلفه قد أردفها رسول الله ﷺ، قال: فعثرت مطيَّة رسول الله ﷺ، فصُرِعَ وصُرِعت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، قال: فأتيناه، فقال: «لَمْ نُضَرَّ»، قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يتراءينها ويَشْمَتْنَ بصرعتها[1].

حثه لها على الانتصار لنفسها: أخرج الحاكم والترمذي عن صفية بنت حيي قالت: [دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: (ألا قلت: فكيف تكونان خيراً وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى؟).

وكان الذي بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبي ﷺ، وبنات عمه، وإنما هي سبيَّةٌ ابنة يهودي][2].

وأخرج الترمذي أيضاً، عن أنس، قال: بلغ «صفية» أن «حفصة» قالت:

(1) مسلم برقم (88/ 1365).
(2) الحاكم (4/ 29) والترمذي (3728).

بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: (إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟) ثم قال: (اتقي الله يا حفصة!)[1].

هجره زينب لأجلها: روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان في سفر فاعتلَّ بعير لصفية، وفي إبل «زينب» فضل، فقال رسول الله ﷺ لزينب: (إن بعيراً لصفية اعتلَّ، فلو أعطيتها بعيراً من إبلك)، فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها، قالت: حتى يئستُ منه وحوَّلتُ سريري، قالت: فبينما أنا يوماً بنصف النهار، وإذا أنا بظل رسول الله ﷺ مقبلاً، فدخل رسول الله ﷺ، فأعادت سريرها»[2].

هكذا كان إمام المقسطين يعامل أزواجه ولا يسمح لإحداهن أن تنال من أختها - أي: ضرتها- ولو بكلمة تمس مشاعرها وتخدش إحساسها، لقد عَزَّ على من تزوج اثنتين أن يوفق بينهما، ولكن سيد البشر وفَّق بين تسع، وألف بين قلوبهن، بفضلٍ من الله، وعنايته التي ترعاه، حتى الغيرة التي هي من جبلَّة المرأة وخليقتها، كانت إذا ظهرت في لحظة من اللحظات بين نسائه ﷺ، فهي أشبه بالفقاعة فوق سطح الماء لا تلبث إلا قليلاً حتى تنطفيء دون أن يبقى لها أثر يعكر على حبيبهن وعليهن صفو الحياة. رضي الله عنهن.

اعتذاره ﷺ إليها: روى أبو يعلى عن أم المؤمنين «صفية بنت حيي» رضي الله عنها قالت: انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وما من الناس أحد أكره إليَّ منه، فقال: (إن قومك صنعوا كذا وكذا) قالت: فما قمتُ من مقعدي وما من الناس أحد أحب إليَّ منه[3]. وروى أبو يعلى أيضاً عنها، قالت: ما

(1) الترمذي (3729).
(2) الإمام أحمد في مسند عائشة (6/ 131).
(3) أبو يعلى برقم (7078).

رأيت قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، رأيته ركب بي من خيبر على عجز ناقته ليلاً، فجعلتُ أنعس، فيضرب رأسي بمؤخرة الرَّحل، فيمسني بيده، ويقول: (يا هذه مهلاً، يا بنت حيي!) حتى إذا جاء الصهباء قال: (أما إني أعتذر إليك يا صفية مما صنعتُ بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا)[1].

وكانت «صفية» قد رأت وهي عروس لكنانة بن الربيع، رؤيا أخرجها الطبراني (عن أبي برزة رضي الله عنه قال: لما نزل رسول الله ﷺ خَيبر، وصفية عروس، فرأت في المنام أن الشمس وقعت على صدرها، فقصتها على زوجها - وفي رواية: على أبيها - فقال: والله، ما تمنَّين إلا هذا الملك الذي نزل بنا، فافتتحها رسول الله ﷺ، فضرب عنق زوجها)[2].

وأخرج الطبراني أيضاً برجال الصحيح، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان بعينَيْ «صفية» خضرة، فقال رسول الله ﷺ: «ما بعينيك؟» فقالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ، قتل أبي، ثم زوجي، فما زال يعتذر إليَّ، ويقول: (يا صفية! إن أباك ألَّب عليَّ العرب، وفعل وفعل) حتى ذهب ذلك من نفسي[3].

مراعاة النبي ﷺ لظروفها: وأخرج البخاري في صحيحه: «حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن عبد الرحمٰن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أن صفية بنت حيي، زوج النبي ﷺ حاضت، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (أحابستُنا هيَ؟) قالوا: إنها قد أفاضت، قال: (فلا إذاً)[4].

---

(1) أبو يعلى برقم (7083-7084).
(2) الطبراني في الكبير (24/ 67).
(3) الطبراني في الكبير (24/ 73).
(4) البخاري (1670).

زيارتها للنبي ﷺ في معتكفه: قامت السيدة «صفية» رضي الله عنها بزيارة رسول الله ﷺ في معتكفه، ولما أرادت أن تنقلب خرج معها ليقلبها إلى بيتها، وقد أخرج البخاري في صحيحه: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني علي بن الحسين رضي الله عنهما: أن «صفية» زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد، في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب «أم سلمة»، مر رجلان من الأنصار، فسلَّما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: (على رِسْلِكُما، إنما هي صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! وكَبُرَ عليهما، فقال النبي ﷺ: (إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيتُ إن يقذف في قلوبكما شيئاً)[1].

المحبة الصادقة: أحبت «صفية» رضي الله عنها النبي ﷺ أصدق الحب وأعمقه، وكان على حبها ذاك أصدق شاهد، وأوثق برهان، وكفى برسول الله ﷺ شاهداً ومصدقاً لها. وقد أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، عن زيد ابن أسلم - رحمه الله تعالى - قال: إن نبي الله ﷺ في الوجع الذي توفي فيه، اجتمع إليه نساؤه، فقالت «صفية بنت حيي»: أما والله، يا نبي الله! «لوددت أن الذي بك بي» فغمزْنَها أزواج النبي ﷺ، وأبصرهن رسول الله ﷺ، فقال: (مَضْمِضْنَ)، فيقلن: من أي شيء يا نبي الله! قال: (من تغامزكُنَّ بصاحبتكن، واللهِ إنها لصادقة)[2]. كان رسول الله ﷺ معروفاً بصدقه وأمانته من أيام الجاهلية، وكان أهلها ينعتونه بالصادق الأمين. وشهادته بصدق «صفية» فوق الشبهات والظنون والريب، حتى إنه وكَّدها بأجلِّ قسم، وأعزِّ يمين، ولو كان في قول «صفية» رضي الله عنها أدنى ارتياب، لما تأخر الوحي عن إيذانه ﷺ.

---

(1) البخاري رقم (1930).

(2) طبقات ابن سعد (8/ 128).

من فضائل صفية رضي الله عنها : امتازت «صفية» رضي الله عنها بالحِلْم والعفو عمن يسيء إليها، متخذة من قول الله تعالى في التنزيل العزيز: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134] منهجاً لها لا تحيد عنه، وقد أخرج أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: [وروينا أن جارية لها أتت «عمر بن الخطاب» فقالت: إن «صفية» تحب السبت - تتهمها بالحنين إلى اليهودية زوراً -، وتصل اليهود، فبعث إليها «عمر» فسألها، فقالت:

أما السبت فإني لم أحبه منذ أن أبدلني الله به يوم الجمعة، - تعني منذ أسلمت -، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، وأنا أصلها، قال: ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي فأنت حرة[1].

لقد حققت كل ما جاء في الآية، فكظمت غيظها، فلم تَثُرْ ولم تغضب، وعفت عنها، فلم تؤدبها، وأحسنت إليها، فأعتقتها. وهذه هي أخلاق الإسلام الذي اعتنقته «صفية» وأحبَّت رسول الله ﷺ الحب كله، لما علمت حقيقة ما جاء به من لدن الحكيم الخبير.

وقد وصف الإمام الحافظ الذهبي «صفية» رضي الله عنها في سيره، فقال: «إنها من ذوات العقل والدين». أجل، إن العقل السليم، هداها إلى الدين القويم، وإخال أن «أبا العلاء المعرِّي» شاعر المعرَّة، قد خانته حكمته، وجمح به فكره حيث قال:

إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ديـنٍ وآخر ديِّنٌ لا عقل له

إن الدَّيِّن هو العاقل، ومن لم يكن له دين فليس من العقلاء، والعقل والدين صنوان لا يفترقان، ومن فقد عقله أنَّى له أن يهتديَ إلى الدين ويَقومَ بتكاليفه؟. وما أصدق دعاء الداعين: اللهم ثَبِّتْ علينا العقل والدين!».

(1) الاستيعاب (4/ 1872).

طلبها للعلم: سمعت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حديث رسول الله (طلب العلم فريضة على كل مسلم) فأقبلت على التماسه والتحلي به، وشَدَّها الحديث الآخر (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) فاندفعت تتحرى في كتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ عن كل ما يفقهها في الدين، فأغنياها عما سواهما. ولستُ بمستنكر طلب علوم الدنيا، بيد أنني أرى أن الصدارة أجدر بعلوم الدين، ثم تأتي علوم الدنيا في المرتبة التالية.

وكانت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقبل على القرآن بشوق ولهفة، كما كانت تقرؤه بشغف، قراءة واعية متدبرة فاهمة، وكانت تقطِّع جُلَّ أوقاتها في صحبته، لا سيما بعد التحاق الحبيب الأعظم ﷺ بالرفيق الأعلى فتشعر أن إيمانها ينمو ويكبر ويزداد، وكانت تدعو الناس إلى الإقبال عليه، وتدبر آياته، أخذاً بأوامره، وامتناعاً عن نواهيه، إنه تنزيل من حكيم حميد، بَرَأَ الخلقَ، وعَلِمَ ما يصلح لهم، فأوحى إلى رسول الله ﷺ به، ولم يفرِّط فيه بشيء، فيا أصحاب العقول! ويا أهل النهى! ويا أولي الألباب! كل شكاواكم حلولها فيه، وكل معاناتكم سببها الإعراض عنه، ألم يقل مُنَزِّله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] أي الأصحّ والأسدّ والأصوبِ والأسلم، فهل يكون عاقلاً من يرفض الصحة والسداد والصواب والسلامة، ويسلك سبيل الخطإ والزيغ والضلال، ويرد موارد الهلاك؟ وقد أخرج أبو نعيم في حليته، عن عبد الله بن عبيدة: (أن نفراً اجتمعوا في حجرة «صفية بنت حيي» زوج رسول الله ﷺ فذكروا الله، وتَلَوْا القرآن، وسجدوا، فنادتهم «صفية» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟)[1] إن القراءة إذا رافقها التدبر والخشوع، كانت أدعى لاستدرار الدموع.

من فضائلها: أنها سرَّبت الطعام والماء لعثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم حصروه وَقتلوه - جزاهم الله شر الجزاء، وأعطى «صفية» أوفى العطاء -.

---

(1) حلية الأولياء (2/ 55).

وفاتها: توفيت أم المؤمنين «صفية» سنة خمسين في زمن معاوية رضي الله عنه ودفنت بالبقيع.

وفي قصيدة لي نظمتها عن مناقب أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن أجمعين - خصصت السيدة «صفية» رضي الله عنها بهذه الأبيات:

من في النِّسَا كصفيةٍ تلك التي حملت إلى عثمان بعض الماءِ
وقليل قُوتٍ سربته فأصبحت أهلاً لرحمة أرحم الرحماءِ
فوفت لذي النورين عهداً صانه من كان جده سيد البطحاءِ
وغدت بشكر المنصفين جديرةً وقمينةً بالحمد والإطراءِ
والله لن ينسى لها معروفها ولعلها تلقى كريم لقاءِ

رحمها الله تعالى.

السيدة صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها

هل أتاك حديث المؤمنة المجاهدة، والعطوفة كالوالدة، والصابرة في البأساء، يوم اشتد الكرب والبلاء، وصرع أخوها سيد الشهداء، فرضيت بما نزل به القضاء، من فاطر الأرض والسماء؟.

إنها «صفية بنت عبد المطلب» التي أصابها سهم الإيمان، فقرَّت عينها وسكن الجَنَان، وأعرضت عن عبادة الأصنام، واتَّبَعَت دين الإسلام، الذي جاء به خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، كانت «صفية» من شواعر النساء، اللواتي أَقَرَّ لهن بالفصاحة البلغاء، وكسا الإسلام شعرها البهاء والضياء.

نسبها: أبوها «عبد المطلب بن هاشم» وأمها «هالة بنت وهيب» وأخوها أسد الله وأسد رسوله «حمزة بن عبد المطلب» سيد الشهداء - وهي عمة خاتم المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين-.

زواجها: كان زوجها في الجاهلية «الحارث بن حرب»، أخا «أبي

سفيان» ولما مات عنها، تزوجت «العوام بن خويلد» أخا السيدة «خديجة» أم المؤمنين رضي الله عنها فولدت له «الزبير» و«السائب» قاله ابن حجر في «الإصابه». وقال ابن الأثير في «أسد الغابة»: فولدت له «الزبير» و«عبد الكعبة»، وقال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: فولدت له «الزبير» و«السائب» و«عبد الكعبة» فجمع بين قولي الإصابة وأسد الغابة، فحسم الخلاف، وأبدى الإنصاف.

إسلامها: أسلمت «صفية بنت عبد المطلب» رضي الله عنها مبكرة قبل أختيها «أروى» و«عاتكة» رضي الله عنهما . وكان ابنها «الزبير» من السابقين الأولين إلى الإسلام، وحين تمادت قريش في طغيانها، وأسرفت في إيذاء المسلمين، أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ليعبدوا الله على أرض ملكها «النجاشي» الذي لا يظلم عنده أحد، وكان عم «الزبير» قد تكفل بتعذيبه، فكان يلفه في حصير، ويعلقه منكوساً، ثم يشعل ناراً ليؤذيه بدخانها حتى يكفر، ولكن «الزبير» احتمل العذاب، وصبر على البلاء، ثم خرج مع طليعة المهاجرين إلى الحبشة، فكانوا في أكرم جوار، عند خير جار.

وكانت «صفية» نعم المربية الفاضلة، فقدمت بالزبير بطلاً فريداً، ومقاتلاً صنديداً، وفارساً عتيداً، عَدَله «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه بألف مقاتل، ولما عاد من الحبشة، هاجر بأمه «صفية» إلى المدينة، حتى إذا كان يوم بدر فعل بالمشركين الأفاعيل، فقد برز كأسد طال جوعه، وهو يريد أن يسكنه بأول ما يقع عليه ناظراه، ولم يلبث أن بَصُرَ بتمثال من الحديد قد خرج من صفوف المشركين يمشي في خيلاء، ويقول: هل من مبارز؟.

وكان في يد «الزبير» عَنَزَة صغيرة - رمح قصير - وراح يتفحَّصُ بعينيه تلك الكتلة من الحديد ليحدد نقطة الضعف فيها، حتى يغرز فيها عنزته، ولم يلبث حتى رأى ثقبين صغيرين يبرقان في أعلاها، فأدرك أن وراءهما عيني الفارس الذي تخفيه كتلة الحديد عن أعين الناظرين إليه، واتجه «الزبير» تجاهه بخطى ثابتة، ورباطة جأش، حتى إذا أصبح في متناول يده،

استجمع قوته، ثم أنفذ عنزته في أحد الثقبين وأوصلها إلى الدماغ، فهوى الفارس الحديدي جثة هامدة، وكان المتخفي وراء كتلَة الحديد، فارس قريش العتيد «عبيدة بن سعيد بن العاص»، وتابع «الزبير» استبساله في القتال، وأنزل بالمشركين النكال، وكانت الدَّبْرة للمسلمين، والهزيمة المنكرة لأعداء الله والدين.

صفية في أُحُد: ويوم أحد، حدث ما حدث من عصيان رماة المسلمين أوامر رسول رب العالمين، وتحول النصر إلى هزيمة، وأخذ الناس ينفضُّون عن رسول الله ﷺ، وأصيب وجرح وكسرت رباعيته ﷺ، وأحيط علماً بسقوط عمه «حمزة بن عبد المطلب» شهيداً، ولمح رسول الله ﷺ امرأة وبيدها رمح تضرب به وجوه الفارين والمشركين، ولما تبين له أنها عمته «صفية» قال رسول الله ﷺ لابنها«الزبير بن العوام»: (القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها)، فلقيها «الزبير» فقال لها: يا أُمَّهْ! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، فقالت: وَلِمَ؟ وقد بلغني أنه مُثِلَ بأخي، وذلك في الله قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبَنَّ ولأصبرَنَّ، إن شاء الله، فلما جاء «الزبير» رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: (خَلِّ سبيلها)، فأتته، فنظرت إليه، وصلَّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر رسول الله ﷺ به فدفن. لقد تحملت «صفية» يوم أحد باستشهاد أخيها، وإصابة ابن أخيها رسول الله ﷺ ما لا يتحمله الرجال، فأية امرأة كانت؟ لقد استمدت قوتها وعزيمتها من الإيمان، وهو أرسخ من راسيات الجبال، ومما رثته به:

أسائلة أصحاب أُحُدٍ مخافة ... بناتُ أبي من أعجم وخبير
دعاه إلَه الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور
فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا ... بكاء وحزناً محضري ومسيري
فيا ليت شِلْوي عند ذاك وأعظمي ... لدى أضبُع تعتادني ونسور

صفية في يوم الخندق: قال ابن جرير الطبري في تاريخه: [حدثنا ابن

حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: كان «صفية بنت عبد المطلب» في فارع «حصن حسان بن ثابت»، قالت: وكان «حسان» معنا فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فَمَرَّ بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، ليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أتانا آتٍ، قالت: فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى، يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغِلَ عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك، يا بنت عبد المطلب! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا!.

قالت: فلما قال ذلك لي، ولم أر عنده شيئاً احتجزْتُ - أي: شددتُ وسطي - ثم أخذ عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان! انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لي بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب[1]!.

وعقَّب السهيلي صاحب الروض الأنف، على حديث «صفية» هذا بقوله: [ويحمل هذا الحديث عند الناس على أن «حسان» كان جباناً شديد الجبن، وقد رفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو صح هذا لَهُجِيَ به حسان، فإنه كان يهاجي الشعراء، كضرار وابن الزبعرى، وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عَيَّره أحد منهم بجبن، ولا وسمه به، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صَحَّ، فلعلَّه كان معتلاً في ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال!.

ا هـ. والله عليم بذات الصدور.

(1) تاريخ الطبري (2/ 577).

وأنا أقول: إن الجبن منقصة وعار، وما كان الشعراء الذين تهاجوا مع «حسان» ليسكتوا عنه، لو عرفوه فيه، وهو مطعن يحط من قدره، ويسيء إلى سمعته أبلغ الإساءة.

يوم خيبر: وفي ذلك اليوم الأغر، خرجت «صفية» وابنها «الزبير» مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فَلْنَنْصِتْ إلى محمد بن إسحاق يحدثنا عما فعله «الزبير» يومئذ، قال: عن هشام بن عروة، إن «الزبير بن العوام» خرج إلى ياسر، فقالت أمه «صفية بنت عبد المطلب»: أيقتُلُ ابني؟ يا رسول الله! قال: (بل ابنك يقتله إن شاء الله)، فخرج «الزبير» وهو يقول:

قد علمت خيبر أني زَبَّارْ   قرمٌ لقوم غير نكس فَرَّارْ
ابن حماة المجد وابن الاخيارْ   ياسرُ لا يغررك جمع الكفارْ
فجمعهم مثل السراب الجرَّارْ

ثم التقيا فقتله الزبير(1). وتم فتح خيبر، وفرح المؤمنون بنصر الله. وكان «الزبير» محباً لرسول الله ﷺ إلى غير ما حَدٍّ. وقد أخرج أبو نعيم في حليته: إن أول رجل سلَّ سيفه «الزبير بن العوام»، سمع نفخة نفخها الشيطان: أُخِذَ رسولُ الله ﷺ، فخرج يَشُقُّ الناس بسيفه، والنبي ﷺ بأعلى مكة، فلقيه، فقال: «ما لك؟ يا زبير!» قال: أخبرت أنك أُخِذْتَ، قال: فصلَّى عليه، ودعا له ولسيفه.

وذات مرة، أغفى رسول الله ﷺ فظلَّ «الزبير» بقربه يحرسه ويدفع عنه الأذى، وحين استيقظ رسول الله ﷺ سأله: «يا أبا عبد الله! لم تَزُلْ؟ - أي: ألم تغادر مكانك؟- قال: لم أزُل بأبي وأمي، يا رسول الله! قال النبي ﷺ: (هذا جبريل يقرئك السلام، ويقول لك: أنا معك يوم القيامة، حتى أَذُبَّ - أدفع - عن وجهك شرر جهنم)، فأية بشرى سارة تلقاها «ابن

(1) تاريخ الطبري (3/ 11).

صفية» من فم الصادق الأمين؟ وما كان أجدر «الزبير» بتلك البشرى الكريمة!.

صدمتها بوفاة الحبيب الأعظم ﷺ: كانت «صفية» ترقب مسيرة حياة ابن أخيها منذ الصغر فأحبته، ولما أيفع ازداد إعجابها به، حتى إذا قام يدعو قومه إلى عبادة الله آمنت به وصدقته، ونافحت عنه، ولما أخبرت بوفاته، كانت الصدمة شديدة عليها، فقالت ترثيه:

إن يوماً أتى عليك ليومٌ كُوِّرَتْ شمسه وكان مضيئاً

وقالت أيضاً:

لفقد رسول الله إذ حان يومه فيا عين جودي بالدموع السواجم

وقالت أيضاً:

عين جودي بدمعة وسهودِ واندبي خير هالك مفقودِ
واندبي المصطفى بحزنٍ شديدٍ خالط القلب فهو كالعمودِ
كِدْتُ أقضي الحياة لما أتاه قَدَرٌ خُطَّ في كتاب مجيدِ
فلقد كان بالعباد رؤوفاً ولهم رحمةٌ وخيرُ رشيدِ
رضي الله عنه حيًّا ومَيْتاً وجزاه الجِنان يوم الخلودِ

إنها زفرات فؤادٍ مفجوع ونَفَثَاتُ قلبٍ أدماه المصاب وعكفت تسترجع وتستغفر، ولا تقول إلا ما يرضي الرب، فهو صاحب المشيئة التي لا ترد، والحكم الذي لا معقِّب له.

رحيل صفية: وفي سنة عشرين للهجرة، في خلافة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه وافى «صفية بنت عبد المطلب» الأجل، فغادرت الحياة عن ثلاث وسبعين سنة[1] وكان مرقدها في البقيع.

وأما فارسها «الزبير بن العوام» فقد خرج «يوم الجمل» مناوئاً لعلي، فناداه، وذكَّره بقول رسول الله ﷺ: (يا زبير! أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم) فحلف ألّا يقاتله، وانسحب من ساح المعركة، فلحقه، «عمرو بن

جرموز» وقتله غيلة، ثم حمل رأسه وسيفه، وانطلق إلى «علي» مؤملاً أن يكافئه، فلما استأذن عليه أمر الحاجب أن يخْبره بقول رسول الله ﷺ: (بشر قاتل ابن صفية بالنار). رحمهما الله تعالى.

السيدة ضُباعة بنت الزبير رضي الله عنها

أبوها «الزبير بن عبد المطلب بن هاشم» القرشية الهاشمية، ابنة عم النبي ﷺ، تزوجها «المقداد بن عمرو» فأنجبت له: «عبد الله» و «كريمة». وخرج «عبد الله» يوم الجمل مع عائشة رضي الله عنها فقتل.

كانت «ضُباعة بنت الزبير» إحدى اللواتي روين الحديث عن رسول الله ﷺ، وروى عنها الأكابر كعائشة وابن عباس، وجابر، وأنس، وعروة، والأعرج، وغيرهم.

وقال ابن الأثير: أخبرنا إسماعيل بن علي بإسنادهم إلى محمد بن عيسى، قال: حدثنا زياد بن أيوب البغدادي، عن عباد بن العوام، عن هلال بن خَبَّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن «ضُباعة بنت الزبير» أتت النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله! إني أريد الحج، أفأشترط؟ قال: (نعم) قالت: كيف أقول؟ قال: (قولي: لبيك اللهم لبيك، لبيك محلي من الأرض حيث تحبسني)[1]. رحمها الله تعالى.

السيدة ضُباعة بنت عامر رضي الله عنها

أبوها «عامر بن قُرْط» العامري، أسلمت بمكة، استنصرت قومها لرسول الله ﷺ فنصروه، ففي حديث عبد الله بن الأجلح، عن الكلبي، أخبرني عبد الرحمن العامري، عن أشياخ من قومه، قالوا: أتانا رسول الله ﷺ

(1) الإصابة (4/352)، وأسد الغابة (5/332).